الرســـالة الســابعة

من مجرد الحديث إلى الطلاب إلى الحديث إليهم ومعهم ، ومن مجرد الاستماع إليهم إلى جعلهم يستمعون إلينا

لفهم عنوان هذا الخطاب الذى يقول فى أول قسم منه : " الانتقال من التحدث إلى المتعلمين إلى التحدث معهم " ونستطيع إعادة صياغة هذا الجزء دون أن نؤثر على معناه بأن نقول : " الانتقال من لحظة التحدث إلى المتعلمين إلى لحظة التحدث معهم " أو الانتقال من حاجتنا إلى التحدث إليهم إلى الحاجة للتحدث معهم . أو " من المهم أن نعيش الخبرة المتناغمة والمتوازنة بين التحدث إلى المتعلمين والتحدث معهم " .

ويعنى هذا أن هناك أوقاتاً يتحدث فيها المدرس إلى المتعلمين كمصدر سلطة ويوجههم إلى ما يجب عمله ، واضعاً حدوداً دونها يفقد المتعلمون حريتهم ذاتها فى إطار لا يحكمه قانون ، بل تحكمه الملاءمة للخيارات السياسية للمعلم ، وما يجرى من تبادل خلال لحظات أخرى يتحدث فيها المعلم مع المتعلم .

وليس ثمة حذر فى أن نعيد القضية التى يعترض عليها عديد من الناس برغم وضوحها . وتلك هى أن التعليم عملية سياسية وليس عملية محايدة ، وعلى المعلمين أن يمارسوها ، وأن يعيشوا مع مقتضياتها ، سواء كانت ذات صبغة ديمقـــراطية تقدمية ، أو تتجلى فى صفتها السلطوية الرجعية التقليدية ، أو تكون وليدة خياراتهم العفوية غير الناقدة ؛ مما يعنى أنهم يصفون أنفسهم بأنهم ديمقراطيون أو منفتحون دون ضوابط . إن التجاوز فى التسيب والانفتاح الذى يظن أنه توجه ديمقراطى من أجل الحرية إنما ينتهى بالعمل ضدها. والواقع أن المناخ التعليمى الذى لا تحكمه ضوابط قد يؤدى إلى تعزيز التوجهات السلطوية .

وعلى الجانب الآخر ، فإن هذا التجاوز والتسيب يتجاهل تنمية الشخصية الديمقراطية لكل من الرجال والنساء ، الذين يسعون لتحرير أنفسهم من خلال الكفاح

من أجل القيم الديمقراطية ، كما أنها تحقق تدريب الإنسان المطيع المذعن ، والمتكيف مع أحلام السلطة . ويمكن القول أن المتجاوزين فى الانفتاح دون ضوابط إنما هم أشبه بالكائنات البرمائية ؛ أى إنهم يعيشون فى الماء وعلى الأرض ، وأنهم ليسوا ذوى صبغة واضحة ، فهم ليسوا محددين تماماً بحرية كاملة أو سلطة كاملة . ومن ثم فإنهم يعيشون فى مناخ يفتقد النظام وتقوى معارضتهم للحرية . لذلك .. فإنى أتحدث عن ضرورة أن يتغلب هؤلاء على تذبذبهم السياسى ، وعليهم فى النهاية أن يصلوا إلى تحديد فيصبحوا من أنصار الحرية أو ضدها .

ومما رأينا فى تحليلنا إن هذه المشكلة تطرح قضية الحرية والسلطة وعلاقتها المتضادة، وهذه إشكالية نفهمها فهماً قليلاً ، ونادراً ما يمكننا توضيحها تماماً ، والحقيقة البارزة هى أننا مجتمع سلطوى واضح المعالم ذو تقاليد قوية فى مركزية الأوامر لها جذورها التاريخية ، وله خبرة محدودة بالديمقراطية ، وهذا ما يفسر التأرجح والتردد بين ممارسة الحرية أو التسلط .

ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أن أيديولوجية التسلط التى تميز ثقافتنا تخترق توجهات مختلف الطبقات الاجتماعية ، وتتمثل كذلك فى ممارسات الوزير ، ورئيس الجمهورية ، أو أحد جنرالات الجيش أو مدير المدرسة ، أو أستاذ الجامعة ، بالإضافة إلى سلطة الضابط وأمين الشرطة وحارس العمارة . ويمكن القول بأن عشرة سنتيمترات فى تباعد مساحة القوة بيننا قد تصل إلى آلاف الأمتار فى قدرتها الفعلية الهائلة على امتلاك القوة وفى الأحكام التعسفية.

ولما كنا غير قادرين فى الممارسة الاجتماعية على حل هذه الإشكالية أو طرحها أمامنا بوضوح ، فنحن دائماً نرتبك فى فهم نوع من السلطة على أنه تسلط ، ومن ثم فإننا حين ننكر الفرق بينهما يُفتقد النظام وتعم الفوضى تحت مظنة أننا نحترم الحرية وندعم الديمقراطية .

وفى أحيان أخرى نمارس التسلط والطغيان حقيقة ، بينما نعتقد ونعلن أننا ديمقراطيون تقدميون . وفى الواقع ولأننى أرفض منهج التسلط إلا أن هذا لا يعنى أننى أتجاهل الحاجة إلى النظام ، كما أننى حين أرفض التسيب والانضباط لا يفسر ذلك على أننى أؤيد التسلط . وكما أكدت ذات مرة فإن أحدهما لا يمثل نقيضاً للآخر ؛ إذ الموقف هو ضد كل من التسيب والتسلط وذلكم هو الموقف الراديكالى . وأعتقد أن هذه الاعتبارات توضح موضوع هذه الرسالة الحالية ، ومن ثم أؤكد أنه إذا كان الممثلون من المعلمين يمثلون التسلط بانتظام فهم دائماً الذين يبدأون بالكلام ، بينما يظل الطلاب خاضعين باستمرار لخطابهم ، وهم فى هذه الحالة يتحدثون إلى ، وعن ، وحول الطلاب، وليس معهم. وحديثهم من موقع علوى إلى مستوى أدنى ، واثقين من صحة كل ما يقولونه . وحتى عندما يتحدثون مع المتعلمين يشعرون كما لو أنهم يقدمون لهم معروفاً ، مؤكدين على قوة أصواتهم ، وسلطتها . وهذه ليست هى الطريقة التى يتحدث بها المعلمون الديمقراطيون مع طلابهم أو حتى حين يتحدث إليهم المعلمون المتسلطون دائماً ما يكونون مشغولين بتقييمهم ، والتعرف على متابعتهم لما يقولون .

إن تدريب الطلاب باعتبارهم عناصر هامة فى الكفاح المستمر من أجل الحرية لا يحرك لدى المعلم المتسلط ساكناً ، أما المعلمون من أصحاب التسيب فإنهم يتخذون مبدأ " دع الأمور كما هى لنرى ماذا سيحدث " وبالتالى يتركون الطلاب لأنفسهم ، وينتهى الأمر بأنهم لا يتحدثون لهم ولا معهم .

ومع هذا ، فإنه إذا قرر المعلمون أن يكونوا ديمقراطيين ، وإذا ضاقت المسافة بين خطابهم الكلامى وممارستهم فى حياتهم اليومية التى يخضعونها دوماً للتشخيص الناقد ، فإنهم بذلك قد يعيشون التجربة الصعبة ، ولكنها الممكنة والممتعة حين يتحدثون إلى ومع المتعلمين . إنهم يعلمون أن الحوار لا يرتكز على المحتوى المراد تعليمه فحسب ، بل يدور حول الحياة نفسها ، إذا أريد له أن يكون سليماً لا من حيث صحة الحقائق أو من حيث عملية التدريس ، بل إن ذلك المحتوى يهيئ مناخاً مفتوحاً وحراً فى بيئة التعلم فى الفصل .

إن التحدث إلى ومع الطلاب لهو نشاط ليس فيه ادعاء أو زيف ، لكنه أسلوب إيجابى بالنسبة للمدرسين الديمقراطيين ؛ حتى يسهموا من خلال مدارسهم فى إعداد المواطنين المسئولين الناقدين الذين نحن فى أشد الحاجة إليهم ، كما أنه لا غنى عنهم فى تنمية مقومات الديمقراطية .

إن المدرسة الديمقراطية المتطورة فى حداثتها – وليس من قبيل حداثة تقليدية محافظة – لها دور كبير فى حياة المجتمع . وأبعد ما يكون عن فكرى أن أزعم أن فى منهج المدرسة المتطورة يكمن خلاص البرازيل .

ومن الطبيعى فإن استعداد الدولة وإمكاناتها لا يقع فى مجرد مؤسسة المدرسة الديمقراطية التى تعد المواطنين القادرين الأكفاء ، لكن خلاص البرازيل سوف يحدث بسبب حاجتها إلى المدرسة الديمقراطية ، ولن تكتمل الديمقراطية دون تحقيق المدرسة الديمقراطية .

وفى هذه المدرسة يوجد المدرسون الذين يتحدثون إلى ومع المتعلمين ، ويستمعون إليهم مهما كانت أعمارهم . ومن خلال هذا الاستماع إلى المتعلمين – وهو مهمة غير مقبولة عند المدرسين المتسلطين – فإن المدرسين الديمقراطيين يعدون أنفسهم دائماً لكى يسمعهم المتعلمين . وهكذا بالاستماع ، وبتعلم التحدث مع المتعلمين ، فإن المدرسين الديمقراطيين يعلّمون المتعلمين أن يستمعوا إليهم أيضاً .

إن الاعتبارات التى ذكرتها سابقاً بالإشارة إلى الموقف التسلطى أو المتسيب يمكن تطبيقها على مشكلة الاستماع للطلبة وجعلهم يسمعوننا . وهى قضية حيوية متعلقة بمسألة حق المتعلم فى صوت يسمع ، فلا يوجد شخص يعيش الديمقراطية كاملة ويساعد فى نموها إذا كان ثمة ما يعوق حقه فى الكلام ، فمن حق كل إنسان أن يكون له صوت مسموع ، وأن يعبر عن خطابه النقدى بطريقة أو بأخرى ، وأن يشترك بشكل أو آخر فى معركة الدفاع عن هذا الحق ، والذى هو فى نهاية المطاف حقه فى العمل . ولذلك فإنه إذا كانت حرية المتعلمين فى الفصل تحتاج إلى حدود حتى لا تضيع وسط الفوضى ، فبالتالى للمعلم صوت يحتاج إلى حدود حتى لا يضيع وسط الفوضى .

ومن ثم فإن كلاً من صـــوت المعلم والمتعلمين يحتـــاج إلى حدود أخلاقيـــة حتى لا يتحول الأمر إلى صور من العبث . وكما أنه لا أخلاقى أن نسكت أصـــواتنا ، فإنه لا أخلاقى بالقدر نفسه أن نستخدم الصوت لتزيف الحقائق أو لنكذب أو لنخدع أو لنشوه . وحقى فى الصوت لا يمكن أن يكون بلا حدود لأقول ما أفهمه عن هذا العالم وعن الآخرين . كذلك فإن حقى فى الصوت لا يمكن أن يكون غير مسئول يكذب دون ندم ، طالما أننا نتوقع من الكذب نتيجة مفيدة لرغبات الكاذب وخططه .

ومن الضرورى بل ومن الملح أن تصبح المدرسة مكاناً يجمع ويحتضن مجموعة من التوجهات الديمقراطية التى تؤلف بينها، ومنها على سبيل المثال: الاستماع للآخرين ليس على سبيل التفضل والمن ، ولكن على سبيل الواجب واحترام الآخرين ، ومنها التسامح الاحترام لقرارات الأغلبية ، بحيث لا تحرم أى فرد يختلف معها فى الرأى حق التعبير عن اختلافه .

ومن هذه التوجهات أيضاً الرغبة فى التساؤل والنقد والحوار واحترام الموضوعات العامة ، التى لا ينبغى أن تعامل معاملة خاصة فتفقد قيمتها .

إن مستوى عمق الهدر بيننا لا يمكن تصديقه ، ويكفى أن نقرأ الجرائد اليومية أو نشاهد الأخبار بالتليفزيون لنرى أن هناك مليونى جهاز غالى الثمن من أجهزة المستشفيات قد تم استبعادها عن الخدمة بحجة عدم الاستخدام ، أو بسبب سوء الصناعة ، أو عدم صلاحيتها قبل وقتها المحدد . وبالتالى فهناك الملايين من قطع الأجهزة والأعمال تتبخر بصورة غامضة ، تاركة وراءها آثارها الباقية .

ولو كان المسئولون عن هذه الكوارث يتم عقابهم كأن يدفعوا ثمن إهمالهم لهذا المجتمع ، أو أن يسجنوا مع إعطائهم حق الدفاع عن أنفسهم ، لما تكررت ظاهرة الانحرافات ، وسوف يتحسن الحال بالتأكيد .

ويمكن إضافة عنصر المناقشة فى الحياة التعليمية السياسية للمدرسة ، بحيث يتم من وقت لآخر مناقشة مثل هذه القضايا التى تطرح مثل تلك الانحرافات المخزية على

بساط البحث ، وما تجلبه من تداعيات وآثار مدمرة على المدى البعيد والمدى القريب على الاقتصاد والفساد الخلقى ، الذى قد يستشرى بيننا . كذلك يجب علينا أن نوضح الإحصاءات المتصلة بذلك الفساد للأطفال وللشباب ، وأن نبين لهم تماماً حقيقة مفادها أنه إذا كان لأولئك المسئولين الجـــرأة على التصرف بلا حكمة ، فإن مثل هذا العمل لن نسمح به البتة فى بيئتنا المدرسية الحميمـــة ، كأن يقوم الطلبة مثلاً بتكسير المناضد أو إلقاء الطباشير أو إهدار الغذاء ، أو تلطيخ الجدران بالكتابات ، وعلينا أن نكشف فســـاد الرأى القائل بأنه إذا كان الأقوياء وحـــدهم هم الذين يفعلون ذلك ، فلماذا لا نفعله نحن ، أو أن الأقوياء يكذبون فلماذا لا نكذب نحن ، وأن الأقوياء يسرقون فلماذا لا نسرق نحن ، إن هذا النحو من التفكير خاطئ تماماً .

لا يستطيع أحد أن يبنى ديمقراطية جادة تغير الهياكل الاجتماعية وسياسات الإنتاج والتنمية ، وإعادة تشكيل مصادر القوة ، وإشاعة العدل بين الناس ، والقضاء على الظلم والكسب غير المشروع للأقوياء ، دون العمل المسبق لمواجهة ذلك من تصحيح الأوضاع ؛ من أجل الالتزام بالأفضليات الديمقراطية والمعايير الأخلاقية .

إن أحد أخطاء ميكانيكية الماركسية أنها عاشت دون أن تفكر أو تتأكد من أنه نظراً لأن التعليم جزء من بنية المجتمع الفوقية ، فسوف لا يكن له دور يلعبه قبل أن تتحول البنية التحتية للمجتمع بصورة جذرية فى أحوالها المادية ، وأنه قبل أن يجرى هذا التغيير فإن ما يمكن عمله عن طريق التعليم هو نشر الدعاية والتعبئة الأيديولوجية وتنظيم الجماهير . وفى هذا الشأن فشلت الميكانيكية كما فشلت فى كل شىء آخر ، والأسوأ من ذلك أنهم أجلوا النضال فى سبيل الاشتراكية فصوروها مناقضة للديمقراطية.

وهناك توجه ديمقراطى آخر يحتوى فى باطنه نقيضه من تقاليدنا الثقافية ، وهو نظام احترام الآخرين ، فضلاً عن اتجاه التسامح الذى ينطلق من إنكار مظاهر العنصرية والعنف ، كما لو كانت شياطين تخرج من الصليب .

إن التمرس بهذا التوجه الديمقراطى فى مدرسة منفتحة أو فى مدرسة فى طريقها نحو الانفتاح عليه بداية أن يعالج التوجه التسلطى والعرقى كالميل إلى إهدار الديمقراطية والحريات ، وحق أولئك المختلفين فى الرأى باعتبارها إنكاراً لجوهر الإنسانية . وعلى هذا التمرس أن يواجه كافة التوجهات غير الديمقراطية هذه أو غيرها ، وأياً كان مصدرها على اعتبار أنها خطايا غير قابلة للفهم ، حين يمارسها رجال ونساء ينظر إليهم على أنهم تقدميون .

ثم ماذا يمكن أن يقال هنا على سبيل المثال عن الرجل الذى يعتبر تقدميًّا ، والذى بالرغم من حديثه وتأييده للطبقات الدنيا ، يتصرف كأنه سيد فى أسرته، والذى يخنق استبداده أنفاس أولاده وزوجته ؟ ويمكن أن يقال هذا كذلك عن امرأة تكافح ضد هموم نساء من جنسها لكنها فى المترل نادراً ما تشكر الطباخة على كوب الماء الذى أحضرته لها، أو أنها فى حوارها مع صديقاتها تشير إلى هذه الطباخة على أنها حسب تعبيرها " واحدة من تلكم النساء " ؟

حقيقة إنه لمن الصعـــوبة بمكان أن نصنع الديمقراطية ، فالديمقراطية مثل أى حلم لا يمكن تحقيقه بالكلمات المثالية ، وإنما يتم ذلك بالتأمل . ثم أنه ليس كل ما أقوله هو الذى أعنيه بحق ، كأن أقول إننى لست عنصريًّا أو أننى ديمقراطى ، لكن محك ذلك هو ما يجسده القول فيما أفعله . ومن ثم يجب أن يكون ما أقوله غير متعارض مع ما أفعله، فما أفعله هو الذى يؤكد أننى صادق أو غير صادق فيما أقول .

إن فى المواجهة بين ما نقوله وما نفعله ، ما يستدعى ممارسة سعينا لتقليل المسافة بينهما ، كما أنه من الممكن أيضاً محاولة تغيير ما نقوله ليتفق مع ما نفعـــله ، أو نغير ما نفعله حتى يتفق مع ما نقوله . ولهذا فإن عملية الاتساق بينهما تؤدى إلى إلزامنا بخيار جديد . وفى اللحظة التى نكتشف فيها التناقض بين ما نقوله ســـواء فى الخطاب أو الممارسة التقدمية أو التسلطية أو فى لحظات التأمل المؤلمة أحياناً، سوف ندرك حالة الغموض التى نجد أنفسنا فيها. وهذا يجعلنا نشعر بأننا لا نستطيع أن نستمر بهذه

الطريقة ؛ فنحاول أن نبحث عن مخرج . وبهذه الطريقة سوف نجد خياراً جديداً ، يفرض نفسه علينا سواء بتعبير خطابنا التقدمى لكى يتفق مع ممارستنا الرجعية ، أو التغيير فى الممارسة الفعلية الديمقراطية ليتفق مع الخطاب التقدمى .

وأخيراً هناك اختيار ثالث يقود إلى السخرية والتشكك الذى يؤدى إلى اللجوء إلى الاعتراف بعدم الاتساق كأداة لانتهاز الفرص . وأعتقد أن إحدى هذه الطرق لدعم الديمقراطية بيننا هى أن نكافح بوضوح ، وبكل تأكيد ، من أجل نزاهة المناقشات التى تستند إلى الحقيقة والواقع كليًّا أو جزئيًّا ، لأنه لا جدوى من مجرد عملية التصويت الانتخابى . والحاصل أن السياسة هى دائماً هكذا ، مشحونة بالوقاحة والعار، وأن كل السياسيين متشابهون لا فرق بينهم فى هذا الصدد . ومن ثم فعلىَّ أن أعطى صوتى لمن يتسمون بالقدرة على الفعل ، حتى ولو كانوا يمارسون السرقة .

وفى الحقيقة هناك توجهات مختلفة فى التصرف ، وهذا هو الطريق الذى يتيح لنا ممارسة السياسة ، وهى ليست الطريقة التى نتعامل فيها بالضرورة خلال نشاطنا السياسى دائماً . إنها ليست السياسة التى تشكلنا على هذا النحو ، وإنما نحن الذين نشكل هذه الممارسات التى نتخذها . ولا شك فى أن السياسة التى نصطنعها الآن أفضل من التى كانت موجودة فى طفولتى . وأقول أخيراً بأنه ليس كل السياسيين الذين يتصرفون بهذه الطريقة يعملون فى مختلف المستويات الحكومية أو فى كل الأحزاب السياسية .

ونحن كمعلمين ، لا يمكننا أن نعفى أنفسنا من المسئولية الخاصة بالسؤال الأساسى فى قضية الديمقراطية البرازيلية ، وفى كيف يمكننا المساهمة سعياً نحو اكتمالها . وكمعلمين ، نحن أيضاً سياسيون نعمل بالسياسة عندما نقوم بالتعليم . وإذا كنا نحلم بالديمقراطية ، فعلينا أن نكافح من أجلها ليلاً ونهاراً ، من خلال إقامة المدرسة التى نتحدث فيها إلى ومع المتعلمين ، مؤمنين بأنه إذا استمعنا إليهم فإنهم سوف يستمعون إلينا .